ذكرى

الذاكرة vs الموت

بيار أبي صعب

«مسموح أن نتوهم... مسموح أن نحلم... مسموح... لكن حذار أن يتحول الخيال إلى واقع». من الآخرة يخاطبنا سعد الله ونّوس (1941 - 1997) في ذكرى رحيله الـ 18. هذه الجملة من «الملك هو الملك» تبدو راهنة، قابلة للقراءة على أكثر من مستوى. الكاتب السوري الذي حلم بالتقدّم والتغيير، بالعدالة والديموقراطيّة وتحرير فلسطين، بمجتمع أفضل، وأنظمة عربيّة أكثر انفتاحاً واحتراماً للشرعيّة وحقوق الإنسان وسعادة الناس وحقوقهم... كيف تراه ينظر إلى الواقع العربي اليوم، إلى الحلم الذي انقلب كابوساً، إلى بلده الجريح، الممزّق، الموزّع على مختلف أشكال الاستبداد والظلم والردّة والتخلّف؟ الواقع لا يأتي مطابقاً لأحلامنا دائماً، ومن النزاهة أن نعترف بذلك، من دون أن نهادن الاستبداد أو نبرر له. الواقع لا يأتي مطابقاً لأحلامنا دائماً، وعلينا عند ذاك، في قلب الكارثة، أن نحاول التمسّك بأحلامنا. العودة اليوم إلى صاحب «حفلة سمر...» و«منمنمات تاريخيّة»، جزء من هذا التمرين: البحث عن ثوابت وسط هذا الزلزال الكبير. عن إبداع ورؤيا وقيم وأفكار تجمع وتوحّد، عن ميراث روحي وفكري ووطني عابر للخنادق التي لن تتركنا إلا أيتاماً: أيتام المشروع النهضوي، أيتام الفكر التنويري («ما أتعس حالنا إذا كان علماء الأمة يسمون الاجتهاد كفراً»/ المنمنمات)، أيتام الديمقراطيّة والعلمانيّة، أيتام القيم الوطنيّة والأحلام القوميّة بمواجهة إسرائيل (سند «ثوّار» آخر زمن، فالغاية تبرر الوسيلة... أليس كذلك؟)، أيتام مشروع مناهضة الاستعمار (هذا الاستعمار الذي بات راعياً لـ«الربيع العربي»). «كم مرّة هزمتنا الخيانة من دون قتال» (المنمنات). نعود الآن إلى مسيرة سعد اله ونّوس، كمن يتمسك بخشبة خلاص، أو يبحث عن بصيص أمل في الليل المديد. نعود إلى رمز المثقف النقدي الملتزم والمبدع، الذي نكأ الجراح الجماعيّة وعرّى الواقع المريض. نعود إلى نصوصه المؤسسة لـ«مسرح عربي جديد»، إلى تنظيراته وكتاباته النقديّة، إلى الجماليّات التي اشتغل عليها جامعاً بيسكاتور والقباني، بريخت وبيراندلو، جان جينيه وميخائيل رومان، بيتر فايس وابن دانيال، هموم الجماعة وتطلعات الفرد، «التسييس» و«الاحتفاليّة»، المسرح الغربي الذي ألمّ به وتقاليد الفرجة الشعبيّة. نحاول أن نبحث في كل ما قال وكتب وفعل، وصولاً إلى كتابه «عن الذاكرة والموت»، عن عناصر لفهم اللحظة الفظيعة التي تحاصرنا. ترى لو أن ونّوس هنا... لا، لا، لنتفادَ هذه اللعبة العقيمة.

لقد تحوّلت الأحلام إلى واقع كابوسي، لكن ذلك لن يمنعنا من أن نعاود الحلم نفسه، ونحسّنه أو نكيّفه. لن ننقلب على أنفسنا، لن نستسلم للخيبة. يذكرنا ونّوس اليوم بأن علينا معاً مواصلة «تعرية الواقع» بدلاً من أسطرته، وممارسة «التحريض» لا «التفريغ». حذار يا ورثة ونّوس من الخطاب الاستلابي الأجوف. «من ليل بغداد العميق نحدثكم. من ليل الويل والموت والجثث نحدثكم» (الملوك جابر). علينا - في «بلاد أضيق من الحب» تتسع لنا جميعاً، أن نعيد النظر بالفكرة والأداء، من خلال نقد صارم، كما عوّدنا سعد الله ونّوس. نستحضر أعمال المرحلة الأخيرة تحديداً: «طقوس الإشارات والتحوّلات» هي مسرحيّة «الربيع» المجهض بامتياز. أعيدوا قراءتها، أعيدوا تقديمها على الخشبة. نلتقي اليوم سعد الله ونّوس على أبواب «نكسة» مستمرّة، وهزائم لم تعد تحصى. نسأله، كي نسترشد بفلسطين، وكانت امتداداً لسوريا الأخرى التي حلم وآمن بها، وبنى مع حفنة من المثقفين والمبدعين الكبار بعض أساساتها. نشهر الذاكرة في مواجهة الموت، التنوير في مواجهة التكفير. نستعيد حديثه الطويل العذب المتعب، وسط الألم، مع عمر أميرالاي، لنستمد ترياقاً ضد اليأس، ضد السرطان الذي كان عنده موازياً لإسرائيل وللانحطاط العربي. نعيد قراءة رسالته الشهيرة في «يوم المسرح العالمي» (1996). كلا، لسنا محكومين بالعدم... بل بالأمل. ولو بعد انتهاء هذا الكابوس العربي الطويل.

سعد الله ونوس...

تبدّد الحلم وانطوى

أراد أن يهزم الصمت بحمّى الكتابة واستكشاف مكمن الألم بمبضع آخر. ماذا لو شهد خريطة البلاد وهي تتمزّق تحت وطأة الحرب الشرسة؟ هل سيعيد صرخة بطل مسرحيته «الأيام المخمورة»: «ما أشدّ وحشة هذا العالم»، أم يواجه «أبو سعيد الغبرا» الذي خرج من قبره مرةً أخرى، كي يتهم أحفاد أبي خليل القباني، بنشر الفسق والمراذل؟ فواتير كثيرة تراكمت في ذكرى غياب المسرحي السوري الـ 18، من دون أن يسدّدها تلاميذه، أو أن يجيبوا عن أسئلته الأخيرة، أو أن يواصلوا تفتيشه عن الحقيقة التي صارت «إبرة في مزبلة»

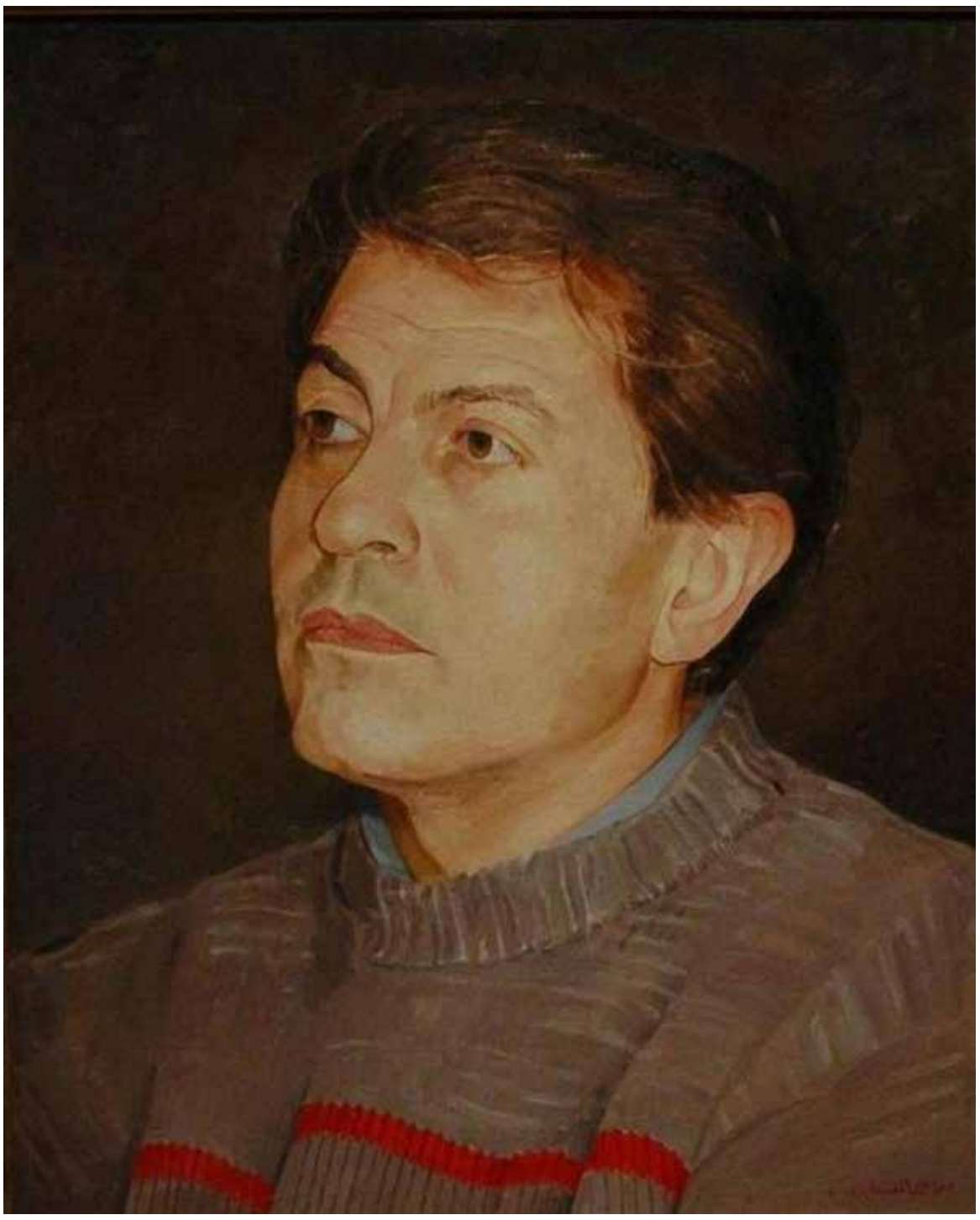

خليل صويلح

يكتب سعد الله ونوس (27 مارس 1941 - 15 مايو 1997) في رسالة قديمة إلى صديقه إبراهيم وطفي المقيم في فرانكفورت (مؤرخة عام 1957): «إننا محكومون باليأس»، لكنه سيقوم ـ بعد عقودٍ على كتابة هذه العبارة ـ بتحويل مجراها إلى «إننا محكومون بالأمل». بين اليأس والأمل عبرت مياه كثيرة، وضعت صاحب «مغامرة رأس المملوك جابر» في لجّة العاصفة، لجهة التحوّلات التي طرأت على مواقفه ونصوصه وخيباته، وربما لو عاش هذه «الأيام المخمورة» لكان أعاد العبارة إلى أصلها الأول، ونحن ندخل نفقاً غامضاً من احتمالات الغرق. الكنوز التي أودعها المسرحي الراحل في أرشيف المسرح السوري، لم يقربها أحد، خلال سنوات الحرب. ظلّت هذه النصوص الإشكالية بمنأى عن الخشبة رغم أهميتها القصوى في تشريح ما يحدث اليوم، إذ لطالما اقتحمت نصوصه المناطق الشائكة في علاقة الفرد بالسلطة، ومعنى الخيبة والخيانة والقمع، وكيف يكون المسرح برزخاً نحو الأسئلة الكبرى لجيل وجد نفسه في قفصٍ ضيّق يعوم في مستنقع الهزائم.

من هنا كانت شراكته مع المخرج الراحل فواز الساجر في منتصف السبعينيات من القرن المنصرم، العائد للتو من موسكو، بمثابة طوق نجاة، أو التفاحة المحرّمة التي كان يتطلّع إلى قطفها من الشجرة العالية.

أثمر هذا اللقاء الإبداعي الخلّاق عن تأسيس «المسرح التجريبي» في عروض لافتة، شكّلت منعطفاً حاداً في تاريخ المسرح السوري، سواء على صعيد الاشتباك مع نصوص عالمية وسحبها إلى بساط المحليّة، أو على صعيد المغامرة المسرحية وزجّها في أتون التجريب، كما فعلا أولاً، في عرض «رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة»، المقتبس عن مسرحية بيتر فايس «كيف استيقظ السيد موكنبيت من آلامه». ثلاث تجارب مهمة، أنعشت الخشبة، مثلما أنعشت الشريكين، قبل أن ينطفئ فواز الساجر إثر أزمة قلبية (16 أيار/ مايو 1988)، ما أرغم سعد الله على أن يعيش منفرداً، خيبةً إضافية، ووجعاً روحياً، وصمتاً طويلاً، انتهى به إلى سرطان الحنجرة. زلزال آخر عاشه صاحب «الملك هو الملك» مع هبوب نكبة حرب الخليج الأولى، أو ما سماه «الخفقة السوداء لأعلام الخيبة» وفقاً لاعترافاته الأخيرة في شريط السينمائي الراحل عمر أميرلاي «هناك أشياء كثيرة كان يمكن أن يتحدّث عنها المرء» (1997). كان الرجل يحتضر، كما قطرات أنبوب السيروم، ممدّداً في سرير المستشفى، بـ«مزاج جنائزي» بدا أنه المشهد الأخير، قبل إسدال الستارة على حياته لمرّة أخيرة. إثر هزيمة «مسرح التسييس» تحت ضربات «التحوّلات الفاجرة» المسرح الذي دافع عنه طويلاً، في نصوصه الأولى، بذرائع

> **ما مصير مذكراته التي أنجزها قبل رحيله في عشرة دفاتر، وهل سترى النور قريباً، أم ستبقى طي الأدراج؟**

إيديولوجية، وخطاب تنويري أو طليعي، تبيّن له لاحقاً، صعوبة ترسيخ مثل هذه المفاهيم، أو التأسيس عليها، سيلتفت صاحب «طقوس الإشارات والتحوّلات» إلى مسرَحة القهر، انطلاقاً من الخليّة الصغرى للعقل العربي، كاشفاً عن أوجاع الفرد، والتقاط القهر الكامن في أعماق الجماعة، وإذا بنا أمام عقل مهزوم تاريخياً، وعدالة مفقودة، وسلطة مستبدة، حوّلت الإنسان العربي إلى كائن مقهور يعيش في قفص. أراد إذاً، أن يهزم الصمت بحمّى الكتابة واستكشاف مكمن الألم بمبضع آخر. هكذا، أنجز خلال سنواته الأخيرة على فراش المرض، مجموعةً من النصوص المهمة بمناوشة اليومي والراهن والحميمي، واستبطان بنية التفكير العربي، ومشكلات المجتمع المعاصر كما في «أحلام شقية»، و«يوم من زماننا»، و«الأيام المخمورة». كأنه اكتشف متأخراً، أن مقارعة التاريخ وحده ليست كافية لمواجهة العطب. وما اندحار المثقف العضوي إلا محصلة لأبشع أشكال الاضطهاد والتهميش والاستبداد التي وقعت عليه. يقول بمرارة وأسى، في أحد حواراته الأخيرة «المسرح ليس بؤرة انتفاضة. كان الاستنتاج مخيّباً ومُرّاً، وكان الحلم ينأى منطوياً في سراب أو وهم، نعم... تبدّد الحلم وانطوى».

في الخندق الآخر للكتابة المسرحية، سعى إلى قضايا سجالية من